مراحل الدعوة الإسلامية

أولا: المرحلة المكية

وقد استغرقت مدة ثلاث عشر سنة، من بداية الدعوة إلى الهجرة، ويمكن تقسيمها إلى دورين:

الدور الأول: الدعوة سرا: وهي تبدأ من أول سنة للدعوة بعد أن نزلت سورة المدثر، وقد استغرق هذا الدور ثلاث سنوات، وبدأ بأقرب الأقربين إليه، ولم يتكلم عن الإسلام في المجالس العمومية لقريش.

وكان في أوائل من دخل الإسلام من هؤلاء: خديجة بنت خويلد، وعلي بن ابي طالب، وزيد بن حارثة، وأبو بكر بن أبي قحافة، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص ... (رضي الله عنهم). وكان أحدهم إذا أراد القيام بعبادة من العيادات ذهب إلى شعاب مكة يستخفي فيها عن أنظار قريش.

ثم أسلم بعد هؤلاء طبقة ثانية منهم: أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن مظغون وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وفاطمة بنت الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر، وأختها عائشة. ولما زاد عددهم عن الثلاثين ما بين رجل وامرأة، أصبحوا يجتمعون سرا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في دار الأرقم بن أبي الأرقم للإرشاد والتعليم.

وكانت حصيلة هذه الدعوة في هذه الفترة ما يقارب أربعين رجلا وامرأة، اعتنقوا الإسلام، معظمهم من الفقراء والأرقاء وممن لا شأن له بين قريش. ويمكن ملاحظة أمرين في هذه المرحلة:

الأول: حافظ الرسول (صلى الله عليه وسلم) على سرية الدعوة حفاظا على أصحابه وتعليما للدعاة وإرشادا لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة.

الثاني: أن الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام كانوا من المستضعفين، والحكمة في ذلك أن حقيقة هذا الدين، تتمثل في الخروج عن سلطان الناس وحكمهم إلى سلطان الله وحكمه وحده، وهذا يخدش كبرياء وسيادة المتسلطين والمتحكمين.

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يدعو الناس في هذه المرحلة ويعلمهم أربعة أشياء:

1 – الوحدانية المطلقة: فالإنسان ليس عبدا لأي كان في الأرض وليس هناك شركاء ولا شفعاء ولا وسطاء.

2 – الدار الآخرة: وهو اليوم الذي يلقى فيه الناس ربهم.

3 – تزكية النفس: وذلك بلزوم العبادات التي شرعها الله عز وجل، والابتعاد عن الأمور التي نهانا عنها.

4 – حفظ كيان الجماعة المسلمة: باعتبارها وحدة متماسكة تقوم على الأخوة والتعاون، بنصر المظلوم وإعطاء المحروم وتقوية الضعيف.

الدور الثاني: الدعوة جهرا والكف عن القتال: مدة هذا الدور عشر سنوات. أمر الله تعالى بالجهر بالدعوة، لما نزلت الآية: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95)" (سورة الحجر، الآيتان 95 و95). وفي سورة الشعراء يقول الله تعالى لنبيه الكريم: " وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220). (سورة الشعراء، الآيات 214–220).

ولما بدأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) دعوته، سخرت منه قريش ولكنها عندما أيقنت من أنه كان جادا فيها انقلبت محاولتها إلى اضطهاد وتعذيب، فأخذت تسيء معاملته وتسوم أتباعه صنوف العذاب.

وأهم أحداث الدور الثاني نلخصها في فيما يلي:

1) **اضطهاد قريش للمسلمين:** حيث عاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) آلهة قريش وسفهها، وحقر من شأنها، فأعظموا الأمر وناكروه، وأجمعوا على خلافه وعدوانه، وطلب جماعة من عمه أبي طالب أن يكفيه عنهم أو يخلي بينهم وبينه. وكان إيمان النبي برسالته قويا وعميقا، فلم يرهبه تهديد قريش فواصل أداء رسالته، وأحست قريش مدى خطورة الدعوة الإسلامية على عبادة الأوثان التي هي المصدر الرئيسي لما كانوا يجنونه في مواسم الحج من ثروات. فتسلط مشركو قريش بالأذى على من أسلم مثل بلال بن رباح وعمار بن ياسر وأبويه وكانت سمية أول شهيدة في الإسلام.

2) **الهجرة إلى الحبشة:** لما اشتد البلاء، اذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة لما عرفه عن ملكها من تسامح، وقال لهم: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه". وبلغ عدد من هاجر إلى الحبشة 83 رجلا بخلاف الزوجات والأبناء (منهم عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وقد أرسلت قريش وفدا لملك للنجاشي تطلب منه تسليم المهاجرين، ولكنه امتنع عن ذلك.

3) **الصحيفة القرشية:** بعد أن أسلم حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب، وفشلت قريش في استعادة من هاجر إلى الحبشة، اجتمع أعيان المشركين في مكة وقرروا مقاطعة الرسول وأصحابه، فكتبوا كتابا تعاقدوا فيه على الامتناع عن البيع والشراء من بني هاشم وبني عبد المطلب وعزلهم عن مكة، وعدم مصاهرتهم، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم، ثم طردوا المسلمين إلى شعاب مكة وكل بني هاشم وبني عبد المطلب إلا أبا لهب عم الرسول (صلى الله عليه وسلم). وحوصر النبي ومن معه من عشيرته ومن المسلمين، ثلاث سنوات، واشتد الحصار وانقطع الغذاء حتى بلغهم الجهد، وتصايح صبيانهم جوعا ومات بعضهم. وقد فشلت المقاطعة لصعوبة

تطبيقها أولا، ولوقوف جماعة من قريش ضدها ثانيا. وفي العام العاشر من البعثة، وفي الوقت الذي اشتد اضطهاد قريش للنبي وأصحابه، فقد النبي سندين وناصرين له في سبيل الحق: أولهما عمه أبو طالب الذي كان يحنو عليه ويمنعه من أعدائه، ثم زوجته الوفية أمنا خديجة. وفي هذا العام أيضا أسرى الله بنبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس.

4) **الخروج إلى الطائف:** ولما اشتد إيذاء قريش للنبي بعد وفاة أبي طالب وخديجة خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من قبيلة ثقيف، وتحدث مع سادتها وأشرافها ودعاهم للإسلام، ولكنهم لم يجيبوه إلى ما أراد، وأخذوا يتهكمون عليه، ثم حرضوا صبيانهم وسفهاءهم وعبيدهم، وراحوا يسبونه ويصيحون به، وتجمعوا عليه، وقعدوا له صفين على طريقه، وضربوه بالحجارة حتى أدموا رجليه، وشجوا رأسه. ولما لم يجد الرسول ﷺ نجاحا في الطائف، ولم يستجب لدعوته رجل واحد، انصرف إلى مكة محزونا. وازداد قومه عليه حنقا وغيظا وجرأة وتكذيبا وعنادا.

5) **بيعتا العقبة الأولى والثانية:** بعد عودة الرسول ﷺ من الطائف، أخذ يعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم عكاظ والحج، يدعوهم إلى الله، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه. وإيوائه حتى يبلغ رسالة ربه، وكان عمه أبو لهب يترصده ويتعرض له، ويدعو القبائل إلى الامتناع وعدم قبول دعوته. ولم تقبل أي قبيلة أن تنصره، ولكن رسول الله ﷺ لم ييأس من إباء القبائل عليه، وواصل اتصالاته بأشراف العرب، فكان لا يسمع بقادم إلى مكة من سادات العرب وأشرافها حاجا أو معتمرا إلا دعاه إلى الإسلام. وحدث أن قدم إلى مكة في السنة الحادية عشر من البعثة وفد من يثرب فالتقى بهم النبي ﷺ وأسمعهم شيئا من القرآن الكريم، وفي العام التالي، أي في السنة الثانية عشر من البعثة، قدم إلى موسم الحج وفد آخر من يثرب يتكون من الأوس والخزرج، فالتقوا بالنبي عند العقبة وبايعوه على ألا يشركوا بالله شيئا، وأن يتجنبوا السرقة والزنا وقتل الأولاد، وألا

يأتوا بهتانا يفترونه، وألا يعصوا النبي في معروف، وتسمى هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى، وبعث الرسول ﷺ معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام. وفي العام التالي، أي في السنة الثالثة عشر من البعثة قدم من يثرب ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من الأوس والخزرج مع قومهم الوثنيين بهدف الحج، واجتمعوا بالنبي ﷺ عند العقبة فحدثهم عن الإسلام ودعاهم إلى عبادة الله وتوحيده، فأظهروا صدق نيتهم وأظهروا إخلاصهم للنبي وطلبوا منه الهجرة إلى بلدهم يثرب. ثم قال: "ابايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم"، وتعرف هذه البيعة ببيعة العقبة الثانية. وبعد عودتهم انتشر الإسلام بيثرب، وأخذ أصحاب النبي يهاجرون إليها. فاستقبلهم أهلها بترحيب كبير، ثم هاجر إليها النبي ﷺ بصحبة أبي بكر الصديق.

والملاحظ أن أهل يثرب كانوا أكثر تصديقا للرسول ﷺ من غيرهم، وأن الرسول اختار هذه البلدة (يثرب) لتكون مأوى وملجأ له وللمسلمين الذين يعانون من الاضطهاد والتعذيب في مكة. ويعود ذلك إل جملة من العوامل منها:

1. كان أهل يثرب يعلمون من اليهود، أن نبيا سيبعث.
2. لم يكن لأهل يثرب مصلحة اقتصادية في تمسكهم بالوثنية كقريش.
3. ستزيل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وإقامته فيها ما بين الأوس والخزرج من نفور وتنازع على السلطة والنفوذ.
4. توجد بين الرسول ﷺ وأهل يثرب صلة قرابة، ففيها بنو النجار، وهم أخوال جده عبد المطلب، وفيها قبر أبيه، وغير بعيد عنها، في الأبواء الواقعة في الطريق بين مكة والمدينة يوجد قبر أمه.

ب – المرحلة المدنية (المدينة المنورة)

عاش الرسول ﷺ في مكة المكرمة ثلاثا وخمسين سنة، حتى ألفته وألفها، وكل عشيرته وقومه منها، ولكنه خرج منها إلى وطن جديد، يرى فيه امتداد قلبه وثمار غرسه. ومن هذا الموطن الجديد ستنطلق الدعوة الإسلامية لتشمل كل شبه الجزيرة العربية، وستنطلق إلى آفاق العالم القديم.

وبمجرد أن استقر النبي ﷺ في المدينة، أسس أول دولة إسلامية في العالم، وهي أول دار للإسلام، وقد قامت على مجموعة من الأسس منها:

1. **بناء المسجد الجامع بالمدينة:** بني المسجد حيث بركت الناقة، وهو موضع لغلامين يتيمين، واشتراه الرسول ﷺ منهما، وكان فيه نخيل وشجر غرقد وخرب ومقبرة قديمة للمشركين ... فنبشت القبور وغيبت العظام وقطعت الأشجار وسويت الخرب ... وقد شارك الرسول ﷺ مع أصحابه في بناء المسجد. وكان المسجد بسيطا في بنائه وفراشه وسقفه وأعمدته ... ومنه تخرج كبار القادة والفاتحين.

وقد كان المسجد في المدينة مركزا لصلاة المسلمين، ودار ندوة لهم في نفس الوقت، ففيه كان يتشاور النبي مع الصحابة في شؤون جماعة المسلمين وعلاقتهم بقريش ... وفيه كانت تستقبل وفود العرب إلى المدينة، وفيه كانت تعقد ألوية المسلمين عند خروجهم إما للإستطلاع أو للغزو، وكان المسجد مركزا ثقافيا وعلميا، فكان الصحابة يتولون تعليم القرآن والسنة لمن أراد أن يتعلمها من وفود العرب القادمة إلى المدينة.

2. **المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:** وهي من أهم الأسس التي قامت عليها دولة المدينة، حيث ربط رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار برابطة المؤاخاة، وهو ما كان يعرف في الجاهلية باسم الحلف، أي أنه آخى بينهم على الحق والمؤاساة، وبذلك تآخى أبو بكر مع خارجة بن زهير الأنصاري، وعمر بن الخطاب مع عتبان بن مالك

الأنصاري، وعبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع الخزرجي الأنصاري وعثمان بن عفان مع أوس بن ثابت المنذر.

والهدف من هذا الإخاء هو إذابة عصبيات الجاهلية، وسقوط فوارق النسب واللون والوطن، وبذلك توثقت وحدة المسلمين في المدينة، وأصبحوا قوة يحسب لها ألف حساب. وكانت هذه الأخوة عقدا نافذا، لا لفظا فارغا أو مجرد شعارات وهتافات سياسية أو حزبية أو ثرثرة ... وقد حرص الأنصار على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين. والمهاجرون لم يستغلوا هذا البذل والعطاء إلا بقدر ما يتوجهون إلى العمل الحر الشريف. ومن الأمثلة عم ذلك ما حدث بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع. فقال سعد لعبد الرحمن، إني أكثر الأنصار مالا، فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك، فسمِّها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال عبد الرحمن، بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع ... كان سعد سمحا وكان عبد الرحمن نبيلا عفيفا، زاحم اليهود في سوقهم وبزهم في ميدانهم وكسب ما يحفظ له علو همته.

3. **موادعة يهود يثرب:** رغب الرسول ﷺ في أن ينظم الأمور الاجتماعية والعسكرية للمجتمع المدني، فعقد لذلك عقدا بينه وبين أهم الجماعات التي يتكون منها المجتمع الجديد. "وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم". وتعرف هذه الوثيقة في التاريخ الإسلامي، بالصحيفة، وقد تضمنت تنظيما للحياة الاجتماعية في المدينة وتحديدا للعلاقات بين أهل المدينة المسلمين وبين يهودها. ويطلق على مثل هذه الوثيقة في عصرنا، كلمة (دستور)ن لنها حددت الحقوق والواجبات لأهل يثرب على أساس المواطنة.
4. **تشريع الجهاد:** بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى يثرب، وأسس فيها أول دار للإسلام، كان على يقين أن قريشا لن تتركه يتقوى ليتغلب عليها أو على الأقل ليتحرش بقوافلها

التجارية إلى الشام. وبعد أن انتهى الرسول ﷺ من تنظيم شؤون المسلمين في دار هجرتهم (مؤاخاة، وعلاقات مع غيرهم)، اهتم بوضع معالم سياسته الخارجية، خاصة بعد أن نزلت الآيات التي شرعت الجهاد للمسلمين. وقد أمر الله رسوله بكسر شوكة الكفر والشرك حتى لا يخشى من يريد الإسلام على نفسه وأن يطمئن إلى سلامته. وبدأ الرسول في تنفيذ أمر ربه، وحاول استطلاع قوة قريش، فأرسل عدة سرايا وقام بعدة غزوات.

وكانت السرايا تقوم باعتراض عير قريش في طريقها إلى الشام أو عند عودتها إلى مكة، دون أن تشتبك معها في قتال أو تستولي على قوافلها. وكان سبب إرسال النبي لهذه السرايا، مجرد التظاهر بقوة المسلمين ومضايقة قريش وموادعة القبائل النازلة في طريق القوافل والتحالف معها، وتلقف أخبار قريش. وقد بلغ مجموع غزوات النبي ﷺ سبع وعشرون غزوة، قاتل في تسع منها فقط، بينما بلغ عدد السرايا سبع وأربعون سرية وقيل ثلاثا وأربعين سرية.

فتح الرسول ﷺ مكة في السنة الثامنة للهجرة، ثم حج حجة الوداع في العام العاشر، وشهد انتصار الإسلام على الوثنية ممثلا في الحشود الهائلة من الحجاج الذين امتلأت بهم ساحة الحرم، وشهد النبي كيف ارتفعت كلمة الإسلام في هذا العدد الضخم من الحجاج الذي بلغ ما يقرب من مائة ألف حاج من العرب ليس بينهم مشرك واحد.

ولما أدى النبي ﷺ مناسك الحج على النظام الإسلامي، وخطب في المسلمين في عرفات خطبته الأخيرة، عاد إلى المدينة في 14 من ذي الحجة، ثم مرض مرضه الذي مات فيه يوم 27 صفر وهو في بيت ميمونة أم المؤمنين، فاستأذن صلوات الله عليه نساءه أن يمرض في بيت عائشة فأذن له في ذلك، وطال مرضه ﷺ أثني عشر يوما وقيل أربعة عشر يوما، ثم قبض يوم الاثنين لاثنتي عشرة من ربيع الأول في السنة الحادية عشر للهجرة/07 جوان 632م، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة.